

252799 - من سنة الله أن الأمم إذا طلبت آية معينة ثم لم تؤمن بها فإن الله يعاجلها بالعذاب

السؤال

لماذا لم ينزل الله العذاب على قريش بعد تكذيبهم بمعجزة انشقاق القمر ، وكل أمه كذبت معجزة أهلكت ، وحديث ابن عباس عن النبي عليه الصلاة والسلام : أن الله لم يعطهم معجزة ؛ وهي تحويل الجبال إلى ذهب ؛ لأنهم إذا كذبوا سيهلكهم ، فلم يعطهم المعجزة ، فهل هناك تناقض في آية انشقاق القمر مع القرآن ؛ لأنهم لم يهلكوا ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

لا تعارض - والحمد لله - فيما ذكره السائل .

فإن الله تعالى يعاجل المشركين بالهلاك إذا كذبوا بالآية المعينة التي طلبوها ، أما إذا لم يطلبوا آية معينة ، وإنما طلبوا جنس الآيات ، كما قال فرعون لموسى : (فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .
فإن الله لا يعاجلهم بالإهلاك على تكذيبهم ، بل يمهلهم ويعطيهم الفرصة لعلمهم يرجعون عن غيهم .
وقد أشار بعض المفسرين إلى هذا المعنى عند تفسيرهم لقول الله تعالى : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) (الإسراء / 59) .

قال الطبري في تفسيره (17/476) :

" يقول تعالى ذكره : وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألتها قومك ، إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذبة ، سألوا ذلك مثل سؤالهم ؛ فلما آتاهم ما سألوا منه ، كذبوا رسلهم ، فلم يصدقوا مع مجيء الآيات ، فعوجلوا ، فلم نرسل إلى قومك بالآيات ، لأننا لو أرسلنا بها إليها ، فكذبوا بها ، سلطنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها ... "
ثم أسند إلى ابن عباس قال : " سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهابا ، وأن ينحي عنهم الجبال ، فيزرعوا ؟

فقليل له : إن شئت أن تستأني بهم ، لعننا نجتني منهم ، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أهلكوا ، كما أهلك من قبلهم ؟

قال : بل تستأني بهم ، فأنزل الله : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة) " انتهى .
وحديث ابن عباس المذكور : رواه أحمد (2333- الرسالة) ، وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : "إسناده صحيح" . وقال

محقوق الرسالة : "إسناده صحيح على شرط الشيخين" .

وقال الشيخ السعدي رحمه الله ، في تفسير قوله تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ) :

"والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضى الأمر بتعجيل الهلاك عليهم ، وعدم إظهارهم، لأن هذه سنة الله ، فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها " .
انتهى من "تفسير السعدي" (ص 251) .
وينظر أيضا : " تفسير السعدي " (ص461) .

وأما انشقاق القمر ، فهو آية عظيمة من آيات الله ، لكن المشركين لم يطلبوها بعينها ، بل طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم آية ، فأراهم القمر شقين ، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة .
روى البخاري (3636) ، ومسلم (43) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " انشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِقَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اشْهَدُوا) " .

وروى البخاري ومسلم أيضا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً ، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ " .
وقد بَوَّبَ البخاري في صحيحه بتبويب دقيق : (بَابُ سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً، فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ) .

فليس في الأحاديث أن المشركين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يشق لهم القمر شقين، بل سألوا آية غير معينة ؛ ولأجل ذلك لم يكن لزاما أن يحل بهم العذاب لما كذبوا وقالوا (سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) .
وأما ما أخرجه أبو نعيم في "دلائل النبوة" من حديث موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن ابن عباس أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم " إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَشُقَّ الْقَمَرُ لَنَا فِرْقَتَيْنِ... " :
فحديث ضعيف ، لا تقوم به حجة ولا تعارض به الأحاديث الصحيحة .
قال ابن حجر رحمه الله : أخرجه " أَبُو نُعَيْمٍ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ وَجْهِ ضَعِيفٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ " .
انتهى من " فتح الباري " (7/182) .

وهناك وجه آخر لدفع التعارض الذي ظنه السائل :

وهو أن الآية التي يجعل الهلاك للمكذبين بها ، إنما هي الآية العامة التي ظهرت لعموم المشركين ، فكذبوا بها ، ولم تكن خاصة بقوم منهم ، أو رآها القليل من الناس .

وقد أشار ابن الجوزي والخطابي رحمها الله إلى هذا المعنى .

قال ابن الجوزي رحمه الله : " وَأَعْلَمُ أَنَّ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فَاقَ بِهَا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، فَلَيْسَ لَهُمْ مِثْلُهَا؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنْ

الأُمُور الأرضية.

وَقَدْ اعْتَرَضَ قَوْمٌ فَقَالُوا: كَيْفَ نَقْلَ هَذَا نَقْلَ أَحَادٍ وَالْخَلْقُ قَدْ رَأَوْهُ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا أَمْرٌ طَلَبَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَأَرَاهُمْ تِلْكَ الْآيَةَ لَيْلًا ، وَأَكْثَرَ النَّاسِ نِيَامٌ وَفِي أَسْمَارِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ .

وَأِنَّمَا رَأَاهُ الْقَلِيلُ مِمَّنْ لَمْ يَطْلُبْ ، وَلَوْ ظَهَرَ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا : لِبُعْثِهَا بِالْعَذَابِ ، كَمَا جَرَى لِلْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ بِالْآيَاتِ الْحَسِيَةِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) [الْإِسْرَاءُ: 59] . الْمَعْنَى: كَذَبُوا فَأَهْلَكُوا ، وَلَوْ أَرْسَلْنَاهَا فَكَذَّبْتُمْ ، لَأَهْلَكْتَكُمْ .

وَالْإِشَارَاتُ إِلَى الْآيَاتِ الْحَسِيَةِ ، كِنَاقَةِ صَالِحٍ " .

انتهى من "كشف المشكل من حديث الصحيحين" لابن الجوزي (1/286) .

وقال الخطابي رحمه الله : " وقد أنكر هذا الخبر منكرون وقالوا: لو كان له حقيقة لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس ، ولتواترت به الأخبار ، عن قرن إلى قرن ، لأنه أمر ، مصدره عن حسن ومشاهدة ، فالناس فيه شركاء ، وهم مطالبون بفطر العقول ، ومن جهة دواعي النفوس ، بذكر كل أمر عجيب ، ونقل كل خبر غريب ، فلو كان لما روي من ذلك أصل ، لكان قد خُلد ذكره في الكتب ، ودون في الصحف ، وكان أهل السير وأهل التنجيم والحفظة على الأزمان ، وأهل العناية بالتاريخ ، يعرفونه ، ولا ينكرونه ، إذ كان لا يجوز الإطباق منهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه وجلالة أمره ؟

والجواب: أن الأمر في هذا خارج عما ذهبوا إليه ، من قياس الأمور النادرة الغريبة إذا ظهرت لعامة الناس ، واستفاض العلم بها عندهم ، وذلك أن هذا شيء طَلَبَهُ قَوْمٌ خَاصٌّ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، عَلَى مَا رَوَاهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، فَأَرَاهُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ لَيْلًا ، لِأَنَّ الْقَمَرَ آيَةُ اللَّيْلِ ، وَلَا سُلْطَانَ لَهُ بِالنَّهَارِ ، وَأَكْثَرَ النَّاسِ فِي اللَّيْلِ تَنَامٌ وَمُسْتَكْتُونَ بِأُفُقِهَا وَحُجُبٍ ، وَالْأَيْقَاطُ الْبَارِزُونَ مِنْهُمْ فِي الْبُؤَادِي وَالصَّحَارَى ، قَدْ يَتَّفِقُونَ أَنْ يَكُونُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَشَاغِلَ بِمَا يُلْهِيهِمْ مِنْ سَمَرٍ وَحَدِيثٍ ، وَبِمَا يَهْمُّهُمْ مِنْ شُغْلٍ وَمِهْنَةٍ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا لَا يَزَالُونَ مَقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ ، رَافِعِينَ لَهَا إِلَى السَّمَاءِ ، مُتَرَصِّدِينَ مَرْكَزَ الْقَمَرِ مِنَ الْفَلَكِ ، لَا يَغْفُلُونَ عَنْهُ ، حَتَّى إِذَا حَدَثَ بِجَرَمِ الْقَمَرِ حَدَثٌ مِنَ الْإِنْشِقَاقِ أَبْصَرُوهُ فِي وَقْتِ انْشِقَاقِهِ ، قَبْلَ التَّائِمَةِ وَاتِّسَاقِهِ .

وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ لِلْقَمَرِ الْكَسُوفُ ، فَلَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ ، حَتَّى يَخْبِرَهُمُ الْآحَادُ مِنْهُمْ وَالْأَفْرَادُ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي قَدَرِ اللَّحْظَةِ الَّتِي هِيَ مُدْرَكُ الْبَصَرِ .

ولو أحبَّ الله أن تكون معجزات نبيه عليه السلام أموراً واقعةً تحت الحسِّ ، قَائِمَةً لِلْعِيَانِ ، حَتَّى يَشْتَرِكَ فِي مَعَايِنَتِهِ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ : لَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ بِالْهَلَاكِ وَالِاسْتِئْصَالِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ أَتَاهَا نَبِيُّهَا بِآيَةٍ عَامَةٍ ، يُدْرِكُهَا الْحَسُّ ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا .

وخصَّ هذه الأمة بالرحمة فجعل آية نبيها التي دعاهم إليها ، وتحدَّاهم بها : عَقْلِيَّةً ، وذلك لما أُوتُوهُ مِنْ فَضْلِ الْعُقُولِ ، وَزِيَادَةِ الْأَفْهَامِ ، وَلِتَلَّا يَهْلِكُوا ، فَيَكُونَ سَبِيلُهُمْ سَبِيلَ مَنْ هَلَكَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ الْمَسْخُوطِ عَلَيْهِمُ الْمَقْطُوعِ دَابِرِهِمْ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ .

والحمد لله على لطفه بنا ، وحسن نظره لنا ، وصلى الله على نبيه المصطفى وعلى آله وسلم كثيراً " انتهى ، من "أعلام السنن، شرح صحيح البخاري" (3/1617-1620) .



والله أعلم .